



شباط ١٩٣٠

سر الحياة

بقلم حضرة النفس عبد المسيح زمر

زال العلماء منذ القديم يهودون النفس للتوصل الى معرفة امر الحياة ، والوقوف على سرها . فكم من مرة تسألوا عن مبدأ الحياة ، وعن ماهية هذا المبدأ ، وحاولوا كشف النقاب عنه ، وصرفوا وكدهم الى تحت امر اي نهل ان هذا المبدأ مستقل ومتميز عن المادة والنفس ام لا ؟ بيد ان آراهم تشتت وذهابهم تباينت في الجواب . فنب ابقراط وجالينوس تألف الحوادث الحيوية واتفاتها الى مبدأ الهي ، وغزاها ارسطو الى النفس التي سماها *entelécie: êrcaléyeiz* ، وقال : انها القوة التي بها ينتقل الشيء من حالة الى حالة ، من عدم الى وجود ، بالنظر الى الغاية التي يقصدها . فالنفس على رأي الفيلسوف هي الاتليكيما الاولى نظراً الى الجسم الطبيعي المزودان بالاعضاء ، والحاصل على الحياة بالقوة . وزعم علماء القرون الوسطى ان النفس ثلاث : نباتية ، وحسية ، وعاقلة ؛ فكانهم قالوا

بثلاثة مبادئ تليها للحياة . ثم قام بارسلز ونسب الولادة والنمو والبقاء في الاحياء الى سانس يوس ويدبر الحياة المادية ، واستعمل لفظ *archée* دلالة على هذا المعنى ، وجعل مركز هذا السانس في المدة ، وزعم انه يدفع عن الانسان عوامل الملاك الآتية من الخارج . وأما فانهلونت (J.B.van Helmont) فذهب الى ان هذا السانس *archée* هو المبدأ المتلصق على وظائف الحياة والمشكل الاجسام بالاشكال التي لها ، وسماه الصورة المتوية (*imago seminalis*) . ونسب آخرون الحوادث الخيرية كلها الى الافعال الآتية ، وحصرها غيرهم في علم الكيمياء الذي كان شائماً في ذلك الزمان .

غير ان شتال (Stahl) الالماني صاحب المذهب النفساني (*animisme*) جعل النفس وحدها مقام ذلك السانس الذي نسب اليه بارسلز وفانهلونت مبدأ الحياة . وما عم ان حل المذهب الخيري (*vitalisme*) محل المذهب النفساني وذلك في مدرسة مييليه ، وظن رئيس هذه المدرسة پول برته (Barthez) ان المبدأ الخيري متيز جوهرياً عن المادة المولفة من اعضاء ، ونشئ على نوع ما من النفس . وفي الجملة ما بقي فيلروف ولا فيسيولوجي الا طرق باب هذه المسئلة . فاهي اذن الحياة ؟ الى يومنا الحاضر لم يتوصل العلماء ، مع كثرة اجابهم ودرسهم الى تحديد الحياة ، وقد وصفوها بانها عبارة عن جملة الحوادث المتنوعة التي تظهر في كل مخلوق بمصور نام معرض للهزم والموت . وهي متوقفة على قوة واحدة ، او قوى كثيرة تسبب هذه الحوادث . فالجناد لا يولد بل يتكون بالتجمع ، ويكبر بانضمام الاجزاء بعضها الى بعض ، ولا يموت . وأما الاجسام الحية ، فعلى الضد ، فانها تولد من حي ، وتنمو ، ويدركها الهرم ، وتموت .

على ان الحياة البشرية تشمل الوظائف العضوية الضرورية لنسوخ الشخص وبقائه ، كالنفس ، والتغذية ، والهضم ، ودوران الدم . وقد صرف العلماء عنايتهم على

(١) هو مبدأ غير هيولي يتاز عن النفس العاقل ، متساو على حوادث الحياة المادية . وقد اخترع الكلمة باسيل والانتن (Valentin) ، واستعملها بارسلز وفانهلونت وهي مشتقة من *zē/εiv* : أمر ، وساس .

الى معرفة مركز الحياة كما جبرفوا وكدهم ايضاً الى ممزقة مركز النفس .
 فارسطو جعله في القلب الذي هو ، على زعمه ، مبدأ الحياة والنهم . وجعله
 آخرون في الصدر او في الرأس . ولما عمل الفيسيولوجيون المتأخرون قرايحهم
 للوقوف على معرفة الاعضاء التي توصل تأثير الجسد الى النفس ، فيتأثر بالتأثير
 المختص به ، نسبوه الى اعصاب النخاع الشوكي . فقال فلوران (Flourens)
 ان مركز الحياة في النخاع الطويل المسمى العقدة الحوية (*noeud vital*) ،
 الى غير ذلك من الاقوال التي يطول بنا الشرح اذا حاولنا ذكرها .

بل قد سئى الاقنمون نفس العالم المبدأ الذي يجي الكائنات ، وهي ،
 بالنسبة الى المادة ، كالمبدأ المحرك القادر على تكوين وتشكيل انسجة الحيوان
 والنبات . وجعل الفلاسفة فيثاغورس وافلاطون والاسكندرديون نفس العالم
 وسطاً بين الاله الاعظم والكون . وذهب الرواقيون منهم الى انها عين الله ؛
 فانتشر ، من اجل هذا الزعم ، مذهب الحلول . وبعد ان تلاشى هذا التعليم
 في الاجيال الوسطى ، عاد ارباب الكفر والاحساد ، ايام النهضة فيشوه من
 رسمه . وكانت الغاية من نشر هذا التعليم والقول بنفس العالم ذريعة استعمالها
 بعضهم لتمايل النظام السائد في الكون والدال على عقل غير متناه .

لا ريب في ان العلم قد خطا الى الامام خطرة كبيرة ، غير انه لم يتوصل
 بالرغم من تقدمه الى تحديد الحياة . ولما كان من المستحيل تحديد الحياة ، فلا
 بأس من بسط الكلام في الجهاد والحى والتمييز بينهما .

ما من احد ينكر ان علم الكيمياء قد تقدم في هذا العصر تقدماً
 كبيراً ، حتى انه توصل الى تحليل المادة الحية ، وتبيان الاجزاء التي تتركب
 منها ، اعني الخلية وذلك في الحيوان والنبات . الا ان الصعوبة كلها متوقفة
 على ادراك كنه هذه الخلية ؛ اذ ان اكثر المواد التي تتركب منها الخلية ثابتة
 غير متغيرة . فالآح مثلاً الذي هو مثال المادة الحية يتركب من الهيدروجن ،
 والاكسيجن ، والازوت ، والكربون . ففي القرن الماضي قام مرسلان برتلر واخترع
 له مذهباً ، استعمل فيه مواد عضوية وكحولية وقوصل الى تركيب خلية ، فصفق
 له حينئذ اصحاب مذهب توحيد الاشياء (*monisme*) استحساناً ، وزعموا انه

اصطنع واخترع مادة حية ؛ وادعى عين المدعى ستيفان لدوك (Leduc) . ولكن تبين بعد الفحص ان المادة التي حصل عليها برتلو مادة ميتة ، او مركب كيمي لا غير ؛ وشتان ما بين تصور وتشريح خلية عادمة الحياة وخلق خلية حية مثلها . فاذن المعضلة اليوم هي كما كانت في ايام ارسطو . ولا غرو اذا قلنا ان العلم ، على تقدمه ، لم يتوفق بعد الى كشف القناع عن سر الحياة . وقد خابت ظنون الذين أعظموا فكرة برتلو ، وادعوا انه ، بما اخترع من التراكيب ، قد توصل الى ابداء سر الحياة . اذ ان هذا الرجل لم يحصل الا على مركب جامد عادم الحياة لا ينمو ولا يكبر ، بينما الحي يتنفس وبأكل ويحيا ويتجدد قوته ويميله الى جرعه . والى الآن لم يهتد الفيسيولوجيون الى معرفة هذه الآلة السرية التي تأتي هذه الافعال . اما ان هذه الآلة الخلية ؟ اما ان الحي ينتقي من الارض قوته قوام حياته فيأكله ويهضمه ، ويستخلص النافع ويرمي بالضار ، وهو يباشر انهاله الحيوية ؟ فاخلية تعمل عن اضطرار ولا تعرف الغاية التي تتجه اليها ، لانها مسرقة الى العمل بطريق الالهام لا غير كما يجري للحيوان . ومهما جهد العلماء انفسهم وكذبوا قرائنهم فليس في طوقهم ان يخلتوا قطرة دم ، او عظاماً صغيراً ، او مخ بيضة .

قلنا ان المادة الحية تنمو ، ولكنها بنموها لا تبقى على حالها ، بل يعرض لها تطورات متشابهة ؛ ومتى بلغت حدّها الذي في طاقتها ان تبلغه وقفت عند ذلك الحد ، وصارت قسین ، وولدت اولاداً احياء مثلها على التوالي ، اذ انها اوتيت قوة الولادة والبقاء في نسلها . هذا وانه قبل اختبارات المألّمة باستود العلمية ، كان سبيل او متدح الى اعتقاد او بالاحرى ظن الولادة الابتدائية . ولكن ذلك الاعتقاد او الظن قد نسخ العلم اليقين آثاره ، وبرهن جلياً ان لا حي الا من حي ؛ وان جراثيم الامراض تتولد من جراثيم سابقة . ولو كان الامر على خلاف قولنا ، لهلك اكثر البشر والحيوان . والحال ان المرء لا يصاب بالسل ، او التيفيّة ، او الطاعون ان لم يصادف جراثيم هذه الاوبئة ؛ بل كان بذل الهمة في اجتناب الامراض ضرباً من الباطل ، مع ان الامر ثابت لا شك فيه . فكم من الامراض التي كانت تفتك بالآدميين في

الماضي ثلاثت تقريباً كالبرص ، او خفت وطأتها كثيراً ؟ فاذا يقول اصحاب مذهب التوالد الابتدائي ، وكيف يستطيعون الى انكار هذه الحقائق سيلاً ؟ فاذن لا حي الا من حي ، ولا خلية الا من خلية ، ولا دجاجة الا من بيضة . وقد زعم بعض العلماء ان الصعوبة كلها تتوقف على تركيب مادة الخلية ، اي ما يستونه *protoplasma* . ولكن كل حي يشتمل على شيء من هذه المادة ، حتى ان هيكيل ادعى ان هذه المادة قوام الخلية واصل الانسان ، ولم يتوقف بعد احد الى روزيتها لانها اليوم على زعمهم غير موجودة . غير ان الفيسيولوجيين مع طول نظرم في هذه المادة ، ودرسهم لها ، ودرجهم ايضاً بالمرقب والمجاهر لم يثبتوا الى اليوم خلية واحدة فقط مركبة من مادة البروتوبلسا لا غير ؛ بل ان المتعنين في درسها لا يرون انها بسيطة البساطة التي ينسبها اليها بعضهم . اذ ان الاختبارات الطمية اثبتت العكس ، اي ان هذه المادة مركبة من مواد كثيرة تحار في سرها ارجح الاحلام . وزد على ذلك ان كل خلية تتضمن نواة ، وهذه النواة تشتمل على حبيبات حية ذات خواص مختصة بها .

فاذا فرضنا ان الانسان توصل ذات يوم الى روية هذه المادة ، او الذرة العنصرية التي يزعم بعضهم انها مبدأ الحياة ، فهل يستطيع يا ترى الوقوف على سر الحياة ، ولاسيا عند ما يرى ويوقن ان هذه الذرة ، على صغر حجمها ، وخفة جسمها ، تحتوي على الوف بل ملايين من الذرات التي لا تبصرها العين المجردة ؟ اما اثبت الطبييون ان ذرة واحدة من الهيدروجين مكونة من النوى جزء متايزة بعضها عن بعض كل الجايز ، وان الذرة الواحدة من « الزلال » *albumine* تحتوي ١١٣٠ جزءاً من الهيدروجين ؛ وان هذه الذرة الصغيرة تحتوي على نحو ثلاثة ملايين ذرة اصغر منها فضلاً عما فيها من الاجسام الاخرى ؟^١

وليس الامر كما وصفنا في الخلايا الوالدة بل هو كذلك في الخلايا المولودة ايضاً . وماذا تقول اذا عرفنا ان بيضة الارنكة الصغيرة كل الصغر تتقف عن

(١) راجع الاب مروو: *D'où venons - nous ?*, p. 110

سكة ، لا عن طائر ، ولا عن زحافة ؟ على ان الارنكة تبيض ٣٥ الف بيضة ، والزجر *esturgeon* الوسط يبيض ١.٤٠٠.٠٠٠ وكلها تنقب عن سمك يشبه الام الوالدة كل الشبه - فكيف يصح ان هذه الطائفة البروتوبلسية ، مع دقتها ، تلد ، بعد التطورات المديدة ، حيواناً حياً ، والحيوان يلد انواعاً كثيرة ، بل سلالات متباينة . لعسري ان في هذا نعجاً ا ولو قدر الانسان على خلق جزء صغير حي لقدرة ايضاً على خلق الجمل والفيل ، واصبح كما قال احد الفيسيولوجيين « اقوى من الطبيعة ، واقدر على الخلق من الخالق ، بل قديراً كثير المتناهي ».

فاذن العلم في حاله الحاضرة ما توصل الى الآن ، ولله لن يتوصل ابداً ، الى شرح اصل الحياة وتبين آلتها ، لعجزه عن تمييز انتشارها على الارض . فمتى يا ترى بدأت الحياة وظهرت ، وكيف كان بدورها وظهرها وانتشارها ، ولا سيما هذه الحياة الحيوانية التي يتسع بها الادميون ؟ هذا سر لا يدركه عقل بشر . انك ايها العلم عاجز قاصر ؟ ولكنك لا تتعجب بجزرك ولا تجاهر بقصورك بل تريد ان تدعي لنفسك اكثر مما لك ، فتتكبر احياناً الحقائق المرحة ، ولا تسلم بالاسرار الفائقة المذرك محتجاً بحجج واهية . اني وسعك الآن ان تبين ما هي الحياة ؟ فاخجل من قصورك واسمع مني كلمة تعلمك ما لا تعلم وتركنك ما لم تركن : « في البدء خلق الله السموات والارض . » انهمت الآن اصل الحياة ، وعرفت مبدعها ومنشئها ا حيك زواغ ا نعم ان الحياة بدأت في الماء اولاً ، ثم في البر والهواء ؛ فالذي اوجد الخلية الاولى اوجد الباقي . غير ان اصحاب مذهب النشوء حاولوا ان يفسروا هذه التطورات ، اعني انتقال الحياة التي كانت في اول امرها حياة واحدة بسيطة ، ثم تكاثرت وتعددت وتركبت ، فقالوا : ان ذوات النعارة الاولية قد تسلسلت من حيوانات بحرية شبيهة بانثاق الحيوانات الرخوة المادسة المتقار ، التي لا رأس لها يمتاز عن جسمها ؛ وان هذا الصنف تولدت منه الاسماك ، ثم بعد حين تسلسل منه الحيوان الذي يعيش في الماء والبر ، وبعد ذلك نشأت وانتشرت الدبابات والحشرات . اما ذوات الانثاء . فتصل على زعمهم الى الطيور المائتة بقراءة الى

الحشرات الطيّارة ، وقد تطوّرت واستحالت من حال الى حال حتى ظهر القرد جدّ الانسان . ولكن هذا التطور الذي يدعونه ليس له من وجود البتة ؛ بل ان علم طبقات الارض والتاريخ ينكران ويردّان هذا الزعم .

اولاً علم طبقات الارض: لقد ذهب الاستاذ لويس اغاسيز^(١) الى ان طرف شاطئ فلوريدة الجنوبي قد تكون على توالي الدهور من تجمع اخطبوط البحر المناطق الحارّة ، وحسب - ان صحّ حسابه - ان ذلك اقتضى نحو منتي الف سنة . والحال اننا اذا قابلنا هذا الحيوان القديم بالحديث لم نجد بينهما فرقاً . ثم اننا اذا قابلنا نبات العصر الرابع ، عصر الجليد ، بنباتنا الحاضر حصاننا على نفس النتيجة . هذا وانهم قد اكتشفوا مؤخرًا على مقربة من هوهنهورزن (Hohenhausen) من اعمال زوريخ في سويسرة ، انواعاً شتى من النباتات القديم العهد ، كالايڤ (if) والصنوبر البري ، ونوع آخر من الدرع (mélèze) ، والسندر (bouleau) والسنديان ، والبندق ، فقوبلت بالاشجار الحاضرة من نوعها فلم يوجد فرق بين القديم والحديث ، والناير والحاضر^(٢) . قال صموئيل پوزي : « اننا اذا نسبنا عدم التغير الى الانواع لا نعي عدم تنوعها ، بل تزيد انها غير متحوّلة ، اي ان النوع لا يستحيل الى نوع آخر^(٣) . »

ثانياً التاريخ : لقد اكتشف ايضاً الاثريون ، في الجليل الماضي والحاضر ، في مدافن المصريين بذراً ومرمياً بعض الحيوان منذ الدولة الرابعة التي ملكت في اوائل الالف الرابع قبل المسيح ، وكل ما اكتشف هنالك يشبه ما عندنا اليوم . وكذلك وصف ارسطو منذ القرن وثلاثمائة سنة حيواناً ونباتاً ، ووصفه موافق للحيوان والنبات نفسها الموجودين الآن . وزد على ذلك كله ايضاً ما وجد في مدينتي هركولانوم ويومبي اللتين اغرقهما الزوف بحمه من النار والاصداق التي هي اليوم في متحف نابولي ، وهي كلها شبيهة كل الشبه بانواعها الحاضرة .

على ان اصحاب مذهب النشوء مخلصاً من هذا المأزق يدعون ان هذا

(١) راجع كتابه : *De l'espèce et de la classification en zoologie*, p. 80

(٢) راجع *Pozzy, la terre et le récit biblique de la création*, p. 357

(٣) راجع كتابه المذكور : *op. cit.* p. 354

التطور والاستحالة قد حدثا بفتة وافتاقاً . ولكن دعواهم هذه باطلة بديل ان قوام النوع شبنان : التشابه والبنوة . فالنوع عبارة عن افراد قادرة على المحافظة على صفاتها الجوهرية معرضة لتطورات ثنوية . والحال ان النوع لا يتغير تغيراً اتفاقياً ألا تدريجياً ، وما زال الانسان والطيمة عينها عاجزين عن الاتيان بمثال هذا التغير او الاستحالة ؛ وما فتئت بيضة السمكة تنفق عن سمكة مثل الام ، وبيضة العصفور عن عصفور . اذن الزعم لا يكفي ، وكل كلام بلا برهان مقنع وحجة واضحة مردود . فاصحاب مذهب التشبه يستندون في اقوالهم الى مزاعم لا يقوم عليها دليل ؛ لاننا اذا قلنا لهم : ارونا حيواناً استحال من نوعه وانتقل الى نوع آخر ، وقفوا حائزين باثرين لا يدرون ماذا يقولون ؛ بل تحككوا في الجدال واطهروا انفسهم معاندين او مكابرين ، او بالاحرى مناظرين ومشاغبين . فكفم من الانواع ما زالت على الحالة التي خلقت فيها لاول مرة ، ولم يجبر عليها شيء . من الاستحالة والتغير اربعين الانواع التي يسميها العلماء (Trilobites) البالغة ٣٥٠ نوعاً لا يرى شيء من التغير الا في بضعة انواع لا تزيد على العشرة ، وهذا التغير يكاد لا يفرق . وكفم من الانواع بادت وانقرضت لان نسلها ما قوي على الصبر على الهواء الذي عاش في وسطه ، وما بقي منها اقل كالألان منه في الاعصر السالفة ! وقد نسبوا اشياء كثيرة الى اثر الهواء الذي من شأنه ان يكون ويشكل الاعضاء ، والى تنازع البقاء الذي يخضع الضعيف للتوي ، والى غريزة طيمنية او جبانة فطرية تدفع الحيوان او النبات الى تكميل انواعه ، غير ان هذه ترهات قد اكل عليها الدهر وشرب ، ونقض اصحاب مذهب الذنوء يدهم منها لما ظهر من فسادها وبطلانها .

النتيجة : ان العلم بما حاول شرح الحياة ونسبتها الى تطورات او استحالات عباد مخذولاً . ولو نظر الناظر في الصفحة الاولى من الكتاب الكريم لرأى فيه ما يعنيه عن المشاغبة والمغالطة ، وابقن ان الحي لا يولد الا من حي مثله ، وفيهم ان الحي الاول القديم الازلي السرمدي خلق كل حي ، اذ الحياة . ولكه وقد اشرك فيها خلانقه كراماً منه وتفضلاً .